الأدب العربي

قديما و حديثا

المحاضرة1

تمهيد:

إن كلمة " أدب " لم تكن معروفة في الجاهلية و لا صدر الإسلام إلا بما يؤخذ من معناها النفسي الذي يؤول إلى الأخلاق و تقويم الطباع ، كما جاء في الحديث النبوي : " أدّبني ربي فأحسن تأديبي " . و إلا فإنّ اللّفظة من أدب القوم يأدبهم أدبا ، إذا دعاهم إلى طعام وليمة . ثّم أن الكلمة فشت في صدر الإسلام الأول لمّا اجتمعوا على أنّ الدين أخلاق يتخلق بها ، فنشأت على إثر ذلك طبقة المعلمين لعهد الدّولة الأموية و أطلق على بعض هؤلاء لفظ المؤدبين و كان هذا توسّعا آخر في مدلول " الأدب " إذ صار أثرا من آثار التعليم.

ثم استفاضت قائمة بالرواية من الخبر و النسب و الشعر و اللّغة و نحوها ،فأُطلقت على كل ذلك.

قال ابن خلدون : " المقصود منه عند أهل اللّسان ، ثمرته و هي الإجادة في فنّي المنظوم و المنثور على أساليب العرب و مناحيهم ، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة ، و سجع متساو في الإجادة ، و مسائل من اللّغة و النحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة ، يستقري منها النّاظر في الغالب معظم قوانين العربية ...ثم أنّهم إذا أرادوا حدّ هذا الفنّ قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب و أخبارها ، و الأخذ من كل علم بطرف " **الرافعي تاريخ آدب العرب ص22** ،و قد أوشكت كلمة " أدب " في القرن الثالث الهجري أن تدّل عل نفس المعاني التي دلّت عليها كلمة " فلسفة" عند اليونان أو كلمة " ثقافة " في العصر الحديث.

و لم ينته القرن الخامس حتى انتهت إلى معنى يشبه إلى حدّ ما معناها اليوم. حيث استعملت للدلالة على الشعر و النثر و ما يتصل بهما .

أما اصطلاحا : فإن{ الأدب هو الفن الذي يجيد فيه الإنسان التعبير عن حسن التفكير أو قوّة الإحساس و العاطفة و الخيال. كما عرّفه" عبد الله شريط " .

و هو الذي يعبر عن الخواطر و المشاعر النفسية فهو صورة ناطقة لحياة الأفراد و الأمم و عرّفه " حنّا الفاخوري" بقوله : " ما أجيد من الكتابة ،- سواء أ كان نثرا أم شعرا- و توفّر فيه الجمال الفنّي الذي تُلهمه القرائح و تجول في جوانبه يدُ الذّوق ، فتصوغ من ألفاظه عالما من الفكر و العاطفة و الخيال

و الموسيقى، يحمل نفس الكاتب و قلبه ، حتّى إذا ولج القارئ أبوابه ، استولى منه على شخصه سِحْرٌ عامِلٌ في عقله و نفسه و قلبه .

و هكذا فالأدب في قسميه النثري و الشعري . فكرة و شعور و صورة و ذوق ، إلّا أنّ الشعر تغلب فيه الصّورة و الأصباغ و الموسيقى.

الغرض من دراسة الأدب:

إذا كان هدف العلوم هو البحث عن الحقيقة ، فإنّ الهدف من الآداب هو البحث عن أوجه الجمال

و الإنفعال به، ووسيلته في ذلك التعبير بالكلام نطقا و كتابة ، شعرا و نثرا.

و الغرض الأهم من دراسة الأدب هو محاولة معانقة التجربة الأدبية في ضمير صاحبها و الحلول فيها

و اكتشاف أبعادها.

تاريخ الأدب:

تاريخ الأدب هو الذي يطلعنا على سير الأدب و الأدباء و على الظروف التاريخية و الجغرافية و الاجتماعية و السياسية و الفكرية التي اكتشفت سير هذا الأدب و أثّرت في مجراه خلال عصور التاريخ.

البيئة العربية و منشأ الأدب:

كانت نشأة الأدب العربي في قلب شبه الجزيرة العربية أكثر ممّا كانت في الأطراف ، ثمّ تمازجت القبائل بفعل العوامل المختلفة ، فامتد لواء الأدب إلى البلاد العربية كلها . ذلك أنّ الأديب كان يحتّل مكانا مرموقا يصل حدّ التشبيه بالنبي الذي ينطق بالوحي ،و إن كان وحيه يأتيه من شيطانه الخاص –كما تقول العرب-

حقيقته:

هو تلك الآثار الشعرية و النثرية التي جادث بها قرائح العرب و غير العرب في شتّى أقطارهم و أزمانهم باللّسان العربي . و ذلك منذ الجاهلية إلى يوم النّاس هذا .

قال أبو عمرو بن العلاء :" ما انتهى إليكم ممّا قالته العرب إلّا أقلّه ، و لو جاءكم وافرا كاملا لجاءكم علم و شعر كثير ".

و كل ما وصل إلينا من الأدب الجاهلي لا يتعدّى كونه قصائد و شذرات من الحكم و الأمثال رُويت مشافهة جيل عن جيل.

فنون الأدب :

يعد الأدب فنّا من الفنون الجميلة الرئيسية التي تعتني بمظاهر الجمال الخارجي و النفسي .

و للأدب مؤثرات في نشوئه و تطوره و استقراره ، و هو صورة لحياة المجتمع الذي عاش فيه و لتقلباته الفكرية و النفسية ، فكما أنّ الأدب يتأثر ببيئته و محيطه و بالإنقلابات الاجتماعية و التاريخية ،فإنّه عامل أساسي لنقل كلّ ذلك ، و التأثير في متلقيه بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

و الأدب ذو فنون و شعاب ينطلق فيها على حسب ما هنالك من معان و أساليب.

أمّا فنون الأدب النثري: فمرجعها إلى الوصف و القصّة و الرسالة و الخطابة و التاريخ و النقد

و الصحافة .

وأما فنون الأدب الشعري: فمرجعها إلى القصص أو الملحمة ، و الغناء أو التغني بخوالج الوجدان،

و التمثيل ، و الحكمة.

مدارس الأدب أو مذاهبه الكبرى:

1/المدرسة الكلاسيكية أو الاتباعية: نشأت الكلاسيكية في القرن 17م إثر انتشار النهضة الثقافية في أوروبا و بعث الآثار اليونانية و الرومانية، و ظهور الطباعة الآلية . حيث تأثر الأدباء الأوروبيون بالقواعد التي وضعها أرسطو في تحديد الأنواع الأدبية و طبيعة الفن.

ويرى الاتباعيون أن حقيقة الإنسان لا تتكشف في الواقع المادي ، بل عندما يشتدّ الانفعال و يخرج الإنسان بأقواله و تصرفاته من وطأة العقل و المقاييس الأخلاقية و الإعتبارية الاجتماعية إلى خفايا

ضميره المكتوم ، و عقده المكبوتة . لهذا وفق الكلاسيكيون في إدراك بعض أغوار النفس السحيقة من خلال صراع الإنسان بين الواقع و المثال، و مدّه و جزره بين الفضيلة و الرذيلة، و بين الواجب و الهوى، و سائر المظاهر الإيجابية و السلبية.

إلّا أنّ أسلوبهم في ذلك كان أسلوبا عقليا، حيث توسلّوا بالعبارة الواضحة البسيطة ماهو معقد و غير واضح ، معتمدين التحليل و التعليل ، أكثر من الإيحاء و الذهول أن لم يكونوا بمعزل عنهما تماما.

و من هنا فالأدب الكلاسيكي أدب فكرة لا أدب صورة ، أدب عقل لا أدب قلب و نفس و عواطف ، فالخيال فيه رديف العقل يجري في ركابه و يتقيّد بقيوده و يخضع لمقتضياته و الانفعال يغذّي التجارب لكنّه لا يفرض منطقة على منطق العقل ، و لا يقينه الخاص على اليقين العام .

و قد ذكر"أرسطو" في كتاب " الشعر" أنّ الفن لا يهدف إلى غاية في ذاته، و إنّما غايته هي خدمة الحكمة و الفضيلة، و هكذا فإنّ القيّم الفنية في هذا الأدب لم تستقّل عن القيم الأخلاقية و البطل الكلاسيكي يجسّد غالبا صراع الإنسان مع قدره و مع ما طُبع في نفسه من ميول و أهواء لا قبل له بصدّها و قتلها.

و من تنازع البطل هاتين الحتميتين (الداخلية و الخارجية) ، و تجاذبه بين عقله و قلبه تنفجر التجارب الإنسانية العنيفة في وجدانه.

2-المدرسة الرومنسية أو الإبداعية:

يرى الرومانسيون أنّ عالم العقل هو جزء يسير من عالم النفس، و لذلك اتّبعوا في أدبهم اليقين الشعوري، بدل اليقين العقلي ووحّدوا بين الذات و الموضوع، و عبّروا عن الطبيعة الخارجية في جزيئاتها المادية و الشكلية، وربطوا الواقع الاجتماعي و الواقع الإنساني العام بواقعهم الخاص، فأحيوا النبات و الجماد

و الحيوان، و بثوا عواطفهم فيما لا عاطفة له كأنّ ثمّة حلولية بين ذواتهم و ذوات الأشياء.

هم يتعشّقون الطبيعة و يتمثلون فيها حياة الإنسان الأوّل ، الذي لم يتطعّم بالذات الإجتماعية الزائـــفة و يحنّون أبدا إلى الطفولة و البراءة التي تعانق الحياة قبل أن يطأها تعقيد العقل، حتى قدّسوا الألم حينا و حنّوا إلى الموت حنينا صوفيا غامضا حينا آخر .

3-المدرسة الواقعية:

ظهرت في الربع الثالث من القرن19م، و الواقعية تصوير للحياة كما هي ، و بعد عن الاستغراق في الأحلام و الشّرود و التحليق في أجواء الخيال.

و قد كانت تعبيرا عن " الروح العلمي" الذي سيطر على الحياة في ذلك الوقت ، و راحت تعبّر عن الحقيقة في الواقع الملموس.

فليس للواقعيين إيمان بعالم علوي فوق المحسوس ، فهم يؤمنون بالحقيقة التي يمكن الوصول إليها عن طريق التجربة.

الدوافـــع البدائية ـــــــــــــــ> الرومنتيكية

الإحساس بالحقيقة ـــــــــــــــ> الواقعية

الإحساس الاجتماعي ـــــــــــــــ> الكلاسيكية (القانون و التقاليد)

4- المدرسة الرّمزية (ق.20م):

قامت الرّمزية في وجه الحركة الواقعية العلمية ، و قد دعت إلى عالم مثالي أكثر واقعية من عالم الحواس ، و حاولت أن تنقل " تجربة علوية في لغة الأشياء المرئية" فهي تؤمن بعالم من الجمال المثالي ، و تعتقد أنّ هذا العالم يتحقق في الفن .و الأشواق التي يجدها العابد في الصلاة و التأمل تتحق للشاعر الرّمزي خلال عمله.

و هكذا فالمدرسة الرمزية هي تعبير عن حالات غامضة في الناحية العاطفية من النفس عن طريق الصّور و الألفاظ، في جوّ من الموسيقى البعيدة المرامي.

و قد يكون فهم الرّمز صعبا، و لكن حين ينكشف ينقل بهجة علوية لا يتحقق بأي أسلوب آخر .

و قد كانت الموسيقى أساسية عند الرمزيين لأنها تعمل على الإثارة و الإيحاء.

5-المدرسة السّريالية:

السريالية آلية نفسية صرفة، تهدف إلى التعبير عن العمل الحقيقي للفكر ، دون وجود أي رقابة للعقل، و بعيدا عن كل اهتمام فنّي أو أخلاقي.